

دلائل الإعجاز

فصل في شواهد على النظم يتحد في الوضع ويدق فيه الصنع .

واعلم أن ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأولٍ وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحداً وأن يكون حالها فيها حال الباني يضع بيمينه ها هنا في حال ما يضع بيساره هناك . نعم وفي حال ما يُدصر مكان ثالثٍ ورابعٍ يضعها بعد الأولين . وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حدّ يحصره وقانونٌ يحيط به فإنّه يجيء على وجهٍ شتّى وأنحاءٍ مختلفةٍ . فمن ذلك أن تراوَجَ بين معنيين في الشرط والجزاء معاً كقول البُحترى - الطويل - :

(إذا ما نهى النّاهي فلجّ بي الهوى ... أصاغت إلى الوّاشي فلجّ بها الهجر) .

وقوله - طويل - :

(إذا احتربّت يَوْمًا ففاضت دماؤها ... تذكّرت القُربى ففاضت دُموعها) .

فهذا نوعٌ . ونوعٌ منه آخرٌ قولٌ سُلَيْمانَ بنِ داودَ القُضاعيّ - الوافر - :

(فبينا المرء في علياء أهوى ... ومنحطاً أُتيح له اعتلاء) .

(وبينا نعمة إذْ حال بؤس ... وبؤس إذْ تعقّبته ثراء) .

ونوعٌ ثالثٌ وهو ما كان كقول كُثَير - طويل - :